

أهرامات مصر من خلال الكتابات المغربية

البضاوية بلكامل

كلية الآداب — الرباط

إن الهرم في جوهره مصري حتى أن مجرد ذكر هذه الكلمة يوحي إلى عقولنا بصورة ذهنية لهذه المباني الضخمة مع ما يحيط بها من رمال الصحراء. بهذا افتتحت المؤلفة مارجريت مري الورقات التي خصصتها لأهرامات مصر⁽¹⁾.

بالفعل، أضحت الأهرام أحد أبرز الرموز الدالة على مصر⁽²⁾، لقد شدت لها أنظار القدماء، ولازال لها نفس السحر بالنسبة للمعاصرين.

صحيح، أن الباحثين عن المغربات حاولوا تغيير المسلمات، وزعزعة الترتيب بمنح أهرامات المكسيك المكانة الأولى، بدعوى أن عدد كتلها 3,3 مليون متر مكعب، في حين أن عدد كتل أهرام مصر لا يتعدى 2,5 مليون متر مكعب، ولكن جل المختصين — إن لم نقل الكل — يجمع على اعتبار أهرامات مصر هي أحد عجائب الدنيا السبع بالنظر إلى قدمها، وطرق بنائها⁽³⁾.

كتب المؤلفون حولها منذ أقدم العصور، وأقدم الكتاب المؤلف الإغريقي

(1) مارجريت مري، مصر ومجدها الغابر، ترجمة محرم كمال (د.ط.)، ص 355.

(2) تعتبر جل الدراسات القديمة والحديثة الأهرامات رمزا لمصر، ويكفي الرجوع للبيولوجرافية المعتمدة في هذا العمل للتأكد من ذلك.

(3) قصاصات الجرائد التي تجمع المغربات. وهناك موسوعات تتحدث بدورها عن أشكال هرمية في البناء بأشور إلى جانب أهرامات المكسيك القديمة، وأهرامات قبائل المايا بأمريكا الوسطى. ولكن أيا منها لم يكن كاملا. أنظر في هذا الصدد محمد شفيق غربال، مادة هرم، الموسوعة العربية الميسرة، المجلد الثاني، ص 1895.

المشهور هيرودوت (Herodote)⁽⁴⁾ الذي عاش خلال القرن الخامس قبل الميلاد. وتوالت الكتابات حولها لسبر أغوارها، ومع ذلك لازالت لغزا محيرا.

وكما هو معلوم، ناهز عدد الأهرام 80 هرما⁽⁵⁾. امتدت لآماد طويلة من حوالي 2700 قبل الميلاد إلى 1500 قبل الميلاد، مع تركيز خلال عصر الدولة القديمة الذي يعرف أيضا بعصر بناء الأهرام، والذي شمل الأسر من 3 إلى 6، وامتد زمنيا بين حوالي سنتي 2700-2400 ق.م⁽⁶⁾.

وقد بنيت الأهرامات في مجموعات⁽⁷⁾. وزال الكثير من هذه المباني بتخطيطها، إما بأيدي لصوص المقابر، وفي الأغلب الأعم بأيدي حارقي الجير الذين وجدوا أن سلب الأحجار من أحد الأبنية أيسر من اقتلاع الحجر من تلال المقطم.

أضف لكل ذلك، أن أهرامات الدولة الوسطى التي بنيت من اللبن واتخذت كسوتها الخارجية من الحجر الجيري فحسب تحطمت عندما نزلت أحجارها الجيرية. وبذلك حفظت أهرامات الجيزة أكثر من غيرها يرجع أسباب شهرة أهرامات الجيزة إلى سهولة الوصول إليها دائما لمن يقصدها من زوار مصر، والجزء الآخر إلى أنها بحكم كونها مجموعة مبنية بالحجارة الصلبة فإنها تظهر ذات أهمية وخطر.

وبلغ فن العمارة الجنائزية ذروته حينما شيد مهندسو الملك خوفو بالجيزة هرمه

(4) HERODOTE, *Histoires*, Texte établi et traduit par PH.E. LEGRAND, éd. Les Belles-Lettres, Paris, 1948, II. 124-125.

(5) أوسع دراسة هي لإدواردز، لقد قدم جرذا بأهرام الدولة القديمة والوسطى، أنظر مرجعه التالي : إدواردز، *أهرام مصر*، ترجمه مصطفى أحمد عثمان، راجعه الدكتور أحمد فخري، لجنة البيان العربي، 1956.

(6) عصر بناء الأهرام أو عصر الدولة القديمة حظي بأكبر عدد من الدراسات، أنظر على سبيل المثال المرجع السالف الذكر (هامش 5)، وهو أشمل مرجع وأكمله. أما باقي المراجع فقد خصصت فصلا مستقلا حول الأهرام، أو فصلا متنوعا حول الدولة القديمة عامة والأهرام بشكل خاص، أنظر على سبيل المثال المرجعين التاليين :

— مرجريت مري، *مصر ومجدها الغابر*، ص 355-362.

— محمد فخري، *مصر الفرعونية*، موجز تاريخ مصر منذ أقدم العصور حتى عام 332 ق.م، مكتبة الأنجلو المصرية، 1983، ص 99-182.

(7) مصير الأهرامات من خلال : إدواردز، *أهرام مصر*، ص 133-134 و 203-205.

الأكبر بالهضبة المذكورة. لقد شغل مساحة 5 هكتارات، وكان ارتفاعه الأصلي 146 متراً، ووصل عدد كتله 2,5 مليون كتلة — كما أسلفنا قوله —. وبلغ متوسط وزن كل واحد 2 و 1/2 طن، وفاق بعضها 45 طناً⁽⁸⁾.

هل استرعت الأهرامات المصرية أنظار الرحالة والكتاب المغاربة ؟ وما نوعية المعلومات التي نستشفها من الكتابات المغربية ؟

بطبيعة الحال، كل ما هو خازق يكون التعلق به ومحاولة سبر أغواره إنسانياً، وبذلك فالرحالة والكتاب المغاربة من قديمهم إلى حديثهم خصصوا فقرات لهذه النوعية من المعالم.

ويبقى التساؤل المطروح، ما هي نوعية المعلومات التي نستقيها من الكتابات المغربية ؟

وقبل ذلك، ما هي أقدم الكتابات المغربية في الموضوع ؟

لا تتوفر على معلومات دقيقة حول الأهرامات خلال المرحلة السابقة للإسلام. ما نعرفه بأن ملك الموريطنيتين يوبا II اهتم بحقول معرفية متنوعة. وألف حولها تأليف مختلفة. وكان مما كتب فيه منبع النيل⁽⁹⁾.

وإذا كان جل الكتاب⁽¹⁰⁾ الذين كتبوا عن مصر، قرنوا كتابتهم عن النيل بحديثهم عن أهرامها، فهل شذ يوبا II عن القاعدة ؟

لا نستطيع الإجابة عن هذا الموضوع بالسلب أو الإيجاب في غياب تأليف العاهل التي فقدت، والتي لم تصل إلينا منها إلا شذرات تناقلها كتاب جاؤوا

(8) للمزيد حول هرم خوفو، أنظر :

— إدواردز، أهرام مصر، ص 129-158.

— أحمد فخري، مصر الفرعونية...، ص 107-118.

(9) حول يوبا الثاني، وموسوعيته، ومؤلفاته، أنظر :

S. GSELL, «Juba II, Savant et Historien», R. Afr. LXVIII, 1927, pp. 169-197 ; sp. 171-174.

(10) يمكن الرجوع لأية كتابة أجنبية أو مغربية وإيجاد ضمنها ثنائية النيل والأهرام، وأحيل القارىء على المراجع المستعان بها في هذه الدراسة، وبذلك لم أقدم تفاصيل حولها، لأنه سستكرر إحالاتي عليها، ومنها ما يلي : هيرودوت، التواريخ / العبدري، الرحلة المغربية / ابن بطوطة، الرحلة / الزباني، الترجمة الكبرى.

بعده، ومن أشهرهم بلين الشيخ (القرن الأول الميلادي)⁽¹¹⁾.

ونفتقد أيضا لكتابات مغربية ترتبط بالمرحلة الممتدة بين القرنين الأول والثاني عشر الميلاديين⁽¹²⁾. وبعد ذلك فقط بدأت المادة المصدرية تتشكل بشكل مضطرد حول هذه المعلمة. وأقدم ما توقفنا عنده نص الإدريسي (12م).

سنركز في عملنا هذا على بعض الكتابات المغربية وفق تتبعها الكرونولوجي، سنبتدىء برحلة الإدريسي خلال القرن 12م وننتهي عند نص ابن زيدان خلال مطلع هذا القرن، ومصادرنا هي على النحو التالي :

- 1 — الإدريسي، في نزهة المشتاق⁽¹³⁾.
- 2 — العبدري، في الرحلة المغربية⁽¹⁴⁾.
- 3 — ابن بطوطة، في الرحلة⁽¹⁵⁾.
- 4 — الزباني، في الترجمانة الكبرى⁽¹⁶⁾.
- 5 — ابن زيدان، في المنزع اللطيف⁽¹⁷⁾.

(11) أنظر مكانة يوبا الثاني عند بلين الشيخ من خلال التحقيق التالي :

Plinie l'Ancien, *Histoires Naturelles*, Livre V. Texte établi, Traduit et Commenté par J. DESANGES, éd. Belles-Lettres, Paris, pp. 141-142.

(12) أقدم ما توقفنا عنده حول الأهرام رواية الشيخ القبطي الذي عاصر مؤسس الدولة الطولونية، أحمد بن طولون خلال القرن التاسع الميلادي. وقد نقل المسعودي الرواية (القرن العاشر الميلادي)، ونقلها عنه البكري (القرن الحادي عشر الميلادي).

(13) الشريف الإدريسي، المغرب وأرض السودان ومصر والأندلس، مأخوذة من كتاب نزهة المشتاق في اختراق الآفاق، مطبعة بريل، ليدن، 1968، ص 145-146.

(14) أبو عبد الله محمد بن محمد العبدري، الرحلة المغربية، حققه وعلق عليه محمد الفاسي، وزارة الشؤون الثقافية والتعليم الأصيل، الرباط، 1968، ص 146-149.

(15) ابن بطوطة، الرحلة، دار التراث، بيروت، 1388هـ / 1968م، ص 37-38.

(16) أبو القاسم الزباني، الترجمانة الكبرى في أخبار المعمور برا وبحرا، حققه وعلق عليه عبد الكريم الفيلالي، مطبعة فضالة، المحمدية، 1967، ص 201-202.

(17) مولاي عبد الرحمان ابن زيدان، المنزع اللطيف في مفاخر المولى إسماعيل ابن الشريف، تقديم وتحقيق عبد الهادي التازي، مطبعة إديال، الدار البيضاء، الطبعة الأولى، 1993، ص 71،

355، 386، 416.

1 — الإدريسي، والأهرام :

لا أحد ينكر موسوعية الشريف الإدريسي، وكونه كان مسافرا نهما للترحال. ومؤلفه نزهة المشتاق في اختراق الآفاق هي الدليل القاطع على مكانة المعاينة عند هذا المؤلف المغربي الذي عاش حياة حافلة بين سنتي 1100-1166م⁽¹⁸⁾.

لاشك أن الرحلة قادته لمصر ولأهراماتها، وبالفعل نجده يخصص أكثر من فقرة للهرمين. ولاشك أنه يقصد بحديثه أبرز أهرامات مصر على الإطلاق، أي هرما الملكان خوفو وخفرع بالجيزة⁽¹⁹⁾. يحددها على بعد «6 أميال من مصر»، وهما عند الضفة الغربية للنيل غير بعيدين عن العواصم القديمة لمصر : منف، والفسطاط ثم القاهرة. ولعل المقصود بمصر آخر هذه المدن، ونعني بذلك القاهرة التي كانت عامرة خلال القرن 12م⁽²⁰⁾.

ذكر الإدريسي بأنه لا يعرف فيما جاورهما (يقصد الهرمان) جبل يقطع منه حجر يصلح للبناء. ليس الأمر كذلك فمهندسو الأهرامات استفادوا في تشييد أهرامات الجيزة من حجارة الجيزة نفسها، بشكل أكبر، وأيضا من حجارة باقي المقالع وعلى رأسها حجارة جبل المقطم⁽²¹⁾. وقد سخروا صفحات الماء لجر الكتل الضخمة من أماكنها الأصلية؛ وشكلت قوة العاملين طاقة لا يستهان بها في جر الحجارة إلى أرضية البناء كما وصف ذلك هيرودوت⁽²²⁾.

جعل الإدريسي للهرمين طولاً واحداً وهو 400 ذراع وعرضها هو نفس

(18) وردت ترجمة حياة الشريف الإدريسي ضمن المرجع التالي :
جون. س. بادو، عبقرية الحضارة العربية، منبع النهضة الأوربية، ترجمة عبد الكريم محفوظ،
بنغازي، 1990، ص 357-358.

(19) يتأكد ذلك من خلال نص ابن الفداء، تقويم البلدان، اعتنى بتصحيحه وطبعه، رينود ومالك
كوكين ديسلان، الطباعة السلطانية، باريس، 1860، ص 108.

(20) حول عواصم مصر القديمة وخاصة القاهرة، أنظر :

F. STEPPAT, «Misr», *Encyclopédie de l'Islam*, Tome VII, (MIF NAZ), New York, Paris,
1993, pp. 148-186.

(21) حول أحجار الجيزة، وباقي مقالع مصر، وطرف قطعها، أنظر :

— إدواردز، أهرام مصر، ص 193-314.

— مرجيت مري، مصر ومجدها الغابر، ص 335-336.

(22) أنظر : HERODOTE, *Histoires*, II. 124-125

ارتفاعها. ومعلوم أن 400 ذراع تساوي حوالي 200 مترا⁽²³⁾، وهذا رقم مبالغ فيه لأن أعلاهما وهو هرم خوفو لا يتعدى ارتفاعه 146م⁽²⁴⁾.

تحدث المؤلف عن نوعية مادة البناء، وعن وزن كل كتلة على حدة. وما قلناه عن عدم دقة المقاييس الخاصة بطول الأهرام ينطبق أيضا على المعلومات الخاصة بوزن كل كتلة على حدة، وعن انتظام مواد البناء. ولم يستعمل المؤلف عبارات الكتاب الذين سبقوه أو جاءوا بعده في وصف الشكل الخارجي للأهرام. ومع ذلك فوصفه بدوره يدل على الشكل المخروطي لأهرامات الجيزة، قال : «وكلما ارتفع بناؤه على وجه الأرض ضاق حتى يصير أعلاه نحو مبرك جمل»⁽²⁵⁾.

تحدث عن قرب قرية دهشور⁽²⁶⁾ من الجيزة، ولم يشير لأهراماتها ولعلها كانت حطاما بما أنها استعملت الطوب اللبن في البناء. وحدد المسافة بين الهرم والآخر بخمسة أميال أي بحوالي سبع كلمترات. وجعل بين الأهرام والنيل نفس المسافة. وتحدث عن الكتابة على جدران الأهرامات التي انمحت. ومعلوم أن الأجيال السابقة واللاحقة لعصر الإديسي ستعتبر الكتابة المصرية صورا. ومثال على ذلك هيروودوت نفسه⁽²⁷⁾. ولم تتغير هذه الملاحظات إلا خلال النصف الأول من القرن التاسع عشر على يد الباحث الفرنسي جون فرانسوا شامبليون الذي أرجع للكتابة المصرية الحياة⁽²⁸⁾.

(23) مشكلة المقاييس حادة، وحول الذراع، أنظر : محمد شفيق غربال، الموسوعة العربية الميسرة، المجلد الثاني، ص 1895.

(24) الإرتفاع الأصلي لهرم خوفو، هو 146، لكنه حاليا لا يتعدى 139م.

(25) الإديسي، نزهة المشتاق، ص 146.

(26) حول دهشور وأهراماتها، أنظر : إدواردز، أهرام مصر، ص 352-354. وقد بنى بها آخر ملوك الأسرة الثالثة حوني، ومؤسس الأسرة الرابعة سنفر، ثم الملك سنوسرت الثالث وأمنمحات الثالث من الأسرة 12.

(27) أنظر : HERODOTE, *Histoires*, II, 125

(28) حول شامبليون نحيل على المرجعين التاليين : سير آلن جردنر، مصر الفراعنة، ترجمة نجيب ميخائيل إبراهيم، مراجعة عبد المنعم أبو بكر، الهيئة المصرية العامة للكتاب، 1973، ص 33-41.

C.W. CERAM, *Des Dieux, des Tombeaux, des Savants*, Traduit de l'Allemand Par G. LAMBRICHES, éd. Plon, 1967, pp. 86-95.

تحدث الإدريسي عن الطريق بداخل كل هرم، وبأنه كان يسير فيه الناس، وبأنه كان بين الهرمين طريق يخترق الأرض ويفضي من أحدهما إلى الآخر. وإذا كان كل من اهتم بالأهرام هو على بينة بالممرات التي تصل بين أجزاء كل هرم، ثم بين الهرم والطريق الذي يصل بين المعبدتين التابعين له، ويتعلق الأمر بمعبد الشعائر ومعبد الوادي، وبالطريق الصاعد المعروف باسم دروموس (Dromos) فلا أحد تكلم عن طريق يخترق الأرض، ويصل بين الهرمين⁽²⁹⁾.

أما عن الهدف من بناء الأهرام، فقد قدم المؤلف غايتين، الهدف القديم، أي الأهرام كأهرام للغلات، والهدف الثاني استعمال الأهرام قبوراً⁽³⁰⁾. ولعل العامل الديني وتأثر القدماء بقصة سيدنا يوسف وبالسنوات العجاف تبرر ربطهم للأهرام بوظيفة حفظ الغلال لسنوات القحط⁽³¹⁾. وهذا أمر — بطبيعة الحال — غير صحيح، فالأهرام لم تستعمل بتاتا مخازن. ولكن لا أحد يناقش في دور الأهرام الأساسي المتمثل في حفظ مومياء الفراعنة، كما أبانت عن ذلك الحفريات بهذه النوعية من العمارة الجنائزية⁽³²⁾.

2 — رحلة العبدري أو الرحلة المغربية :

تتضمن رحلة العبدري ورقة حول الأهرامات. وبما أن أبو عبد الله محمد بن محمد العبدري الحيحي بدأ رحلته سنة 688هـ/1289م. فهي ثاني أقدم كتابة مغربية حول الأهرام⁽³³⁾.

قدم صاحب الرحلة وصفا للشكل الخارجي للأهرام على الشكل التالي، قال : «والأهرام مبان من حجارة صارت لإحكامها كاللحجر الواحد في غاية العلو، متسعة الأسفل، مستديرة الشكل، فكلما طلعت انخرطت حتى صار أعلاها حادا

(29) حول التشكيلة الهرمية : الأهرام، المعبد الجنائزي، معبد الوادي، والطريق الصاعد، أنظر :

إدواردز، أهرام مصر، ص 179-180.

والشكل رقم 18 بهذا المرجع، هو رسم تصويري. وتظهر من خلاله التشكيلة الهرمية كاملة.

(30) الإدريسي، نزهة المشتاق، ص 146.

(31) سورة يوسف، الآيات 146-148.

(32) دور الأهرام الجنائزي يقره أكثر من مصدر ومرجع.

(33) ترجمة حياة العبدري من خلال الرحلة نفسها، مقدمة محمد الفاسي (ت إلى از).

على شكل المخروط»⁽³⁴⁾.

سيتردد نفس هذا الوصف عند جل المؤلفين المغاربة، وهو كاف لمعرفة بأن المقصود هي مجموعة الجيزة. لأنه كما هو معلوم ليس هناك شكل واحد للأهرامات، فهناك الهرم المدرج، وهناك المنحني. وحدها أهرامات الجيزة كان لها هذا الشكل الأملس المخروطي، هذا من جهة، ومن جهة ثانية، هي أعلى الأهرامات التي اتخذت هذا الشكل⁽³⁵⁾.

لم تعد المداخل إلى الأهرام معروفة زمن الإدريسي. وغابت عن كتاب هذه المرحلة أيضا أسماء بناء الأهرام. ولا غرابة في ذلك، فالبيون الزمني واسع، وهيرودوت نفسه في كلامه عن بناء الأهرام أخلط بين عصر خوفو، وعصر الرعامسة⁽³⁶⁾.

ونتساءل، هل عاين العبدري عن كتب الأهرام، أم أن معلوماته استمدتها من مصادر سابقة؟ وهل رجوعه للمصادر هو فقط في محاولة لمعرفة الهدف من بناء الأهرام؟

على كل، شكل مؤلفان مادته المصدرية يتعلق الأمر بكتاب المسالك والممالك للبكري (11م)، ومروج الذهب، ومعادن الجواهر للمسعودي (10م). والأول بدوره أخذ عن المسعودي. وبالفعل، عند قراءة النصين حول الأهرام يبدو ذلك جليا. فقصة الشيخ القبطي التي يحكيها المسعودي بتفصيل، ويربطها بحكم أحمد بن طولون، أي بالقرن 9م يرددها البكري بحذافرها مع تلخيص بسيط يجعلنا

(34) العبدري، الرحلة المغربية، ص 147.

(35) من أشكال الأهرامات، الهرم المدرج، والهرم المنحني، والهرم الكامل، وللمزيد من التفاصيل، أنظر:

إدواردز، أهرام مصر، ص 69-196. (الهرم المدرج، ص 69-103؛ شكل 4، ص 83 / الهرم المنحني، ص 104-128؛ شكل 10، ص 107 / الهرم الكامل، ص 129-196؛ شكل 14، ص 135).

(36) نسب بناء الأهرام لرامبسينات، والمصطلح يدل على عصر الرعامسة الذي يوافق عصر الدولة الحديثة وبالأساس حكم الأسرتين 19 و20. مع الإشارة إلى أن أشهر الرعامسة هما رمسيس الثاني من الأسرة 19 ورمسيس الثالث من الأسرة 20. ولكن هذا الأخير لا صلة له برمسيس الثاني إلا من خلال تشابه الأسماء، أنظر: HERODOTE, *Histoires*, II, 124

نتذكر التفاصيل الغائبة بسهولة⁽³⁷⁾.

وتجمع المصادر المختلفة المشرقية والمغربية على اعتبار الغاية من بناء الأهرام، هي : حفظ جثة الملك. وحسب عبارة النصوص «إنها قبور الملوك»⁽³⁸⁾.

ولكن المسعودي أورد معلومات دقيقة حول كيفية الدخول للهرم. وهذه عبارة أسقطها العبدري من رحلته. قال المسعودي : «ويجعل باب الهرم تحت الهرم، ثم يحفر له طريق في الأرض»⁽³⁹⁾.

بالفعل، هناك غرف دفن حفرت تحت الأرض، وتوصل إليها ممرات سفلية. وهذا كان أيضا شأن هرم خوفو إلى أن تم الاستغناء عن غرفة الدفن السفلية، فوضعت في مرحلة ثانية في مستوى قاعدة الهرم، ثم حولت في مرحلة لاحقة إلى قلب الهرم، كما يتبين ذلك من تصميم هذا الهرم⁽⁴⁰⁾.

أما عن طريقة البناء، فالغريب أنها كانت معروفة زمن المسعودي⁽⁴¹⁾. ووردها كل من البكري والعبدري بشيء من التلخيص⁽⁴²⁾. قال المسعودي في هذا

(37) لا يذكر العبدري مؤلف المسعودي المستهدف. ولكن معرفة نص البكري سهل عملية البحث عن النص عند المسعودي في مؤلفه «مروج الذهب ومعادن الجوهر». ويمكن من عقد المقاربات بين النصين وباقي النصوص التي استمدت مادتها منهما. وقد وردت معطيات حول الأهرام بالمصدرين السالفي الذكر على النوال التالي :

المسعودي، مروج الذهب ومعادن الجوهر، طبعه باريبي دي ميتار وبافني دي كرتاي، عني بتنقيحها وتصحيحها شارل بيلا، منشورات الجامعة اللبنانية، قسم الدراسات التاريخية II، بيروت، 1966، رقم 792، ص 77-78.

أبو عبيد البكري، كتاب المسالك والممالك، حققه وقدم له أدريان فان ليوفن وأندري فيري، الدار العربية للكتاب والمؤسسة الوطنية للترجمة والتحقيق والدراسات، بيت الحكمة، تونس، 1992، ص 511-512.

(38) العبدري، الرحلة المغربية، ص 148. وأضاف العبدري في نفس الصفحة حول بناء الأهرام الفكرة التالية : «حفظا لجثته وجثت أهله، ومستودعا للعلوم من آفة الطوفان». ويقصد بحديثه ملك مصر قبل الطوفان شونيد بن سهلون الذي سبق وأشار إليه في الصفحة السابقة.

(39) المسعودي، مروج الذهب، رقم 792-793، ص 77-78.

(40) حول مراحل بناء هرم خوفو، أنظر : إدواردز، أهرام مصر، ص 135، شكل 14.

(41) المسعودي، مروج الذهب، رقم 792، ص 77-78.

(42) البكري، المسالك والممالك رقم 860، ص 511-512.

العبدري، الرحلة المغربية، ص 147-148.

الصدد : « قيل له — أي للشيخ القبطي — فكيف بنيت هذه الأهرام المملسة، وعلى أي شيء كانوا يصعدون وبينون، وعلى أي شيء كانوا يحملون هذه الحجارة العظيمة التي لا يقدر أهل زماننا هذا على أن يحركوا الحجر الواحد إلا بجهد إن قدروا». فقال : « كان القوم يبنون الهرم مدرجا ذا مراق كالدرج، فإذا فرغوا منه نحتوه من فوق إلى أسفل، فهذه كانت حيلتهم، وكان مع هذا لهم قوة وصبر، وطاعة للوكلهم ديانية»⁽⁴³⁾.

واكتفى العبدري بما قل ودل ذكره، «فقال له كيف بنيت بتلك الحجارة العظيمة، ومن أين يصعد إليها، قال إنهم كانوا يبنونها على مراق أبرزوها من البنيان، فإذا فرغوا نحتوها»⁽⁴⁴⁾.

لماذا اعتبرت ما أورد المؤلفون من معلومات أمرا غريبا، مرد استغرابي لكون هذه المعلومات هي عين الصواب. هي نفس الطريقة التي وصفها هيرودوت خلال القرن ٧ ق.م⁽⁴⁵⁾، وهي نفس الطريقة التي مال إليها المختصون في تاريخ العمارة بعد لأي⁽⁴⁶⁾. وبالمناسبة فالإختلاف الواضح في الرؤى بين المشرقي والغربي واضح من خلال الحديث عن الحافز لبناء الأهرام فهو عربون عن الطاعة حسب الطرف الأول، وهو سخرة وعبودية حسب الطرف الثاني. ولكن الكتابات المغربية لم تقف عند هذا الجانب⁽⁴⁷⁾.

(43) المسعودي نفس هامش 41.

(44) العبدري وطريقة بناء الهرم من خلال : الرحلة المغربية، ص 147.

(45) انظر : HERODOTE, *Histoires*, II, 124-125.

(46) نذكر من الباحثين المعاصرين الذين اهتموا بكيفية بناء الأهرام (LAUER) و(BAUCHARDT)، للأسف لم نجد مرجعتهما بمكتبات الرباط، ولكن يمكن التوقف ومعرفة رأيهما من خلال الإحالة التالية :

M. DUMAS et Autres, *Les Origines de la civilisation technique*, éd. P.U.F, Paris, 1962, N° 1, pp. 165-166.

(47) فكرة السخرة وردت عند هيرودوث، والوازع الديني عند المسعودي، وقد ناقش الدكتور أحمد فخري فكرة السخرة والرق، وفكرة العمل الإنساني على اعتبار أن الأهرام من خلال بغض الباحثين أتاحت فرصة الشغل للعمال العاطلين. اعتبر المؤلف كلا الرأيين خاطئين، وحسب قوله لا يمكن أن نحكم على الماضي بمنطق العصر الحاضر، ولكن كان ميله أكبر إلى الوازع الديني كأحد أبرز الحوافز لبناء الأهرامات، أنظر :

HERODOTE, *Histoires*, II. 124-125

وأورد العبدري قصة المامون مع الأهرام. فقد قام بقياسهما ووجد بأن طول كل واحد من الهرمين الكبيرين أربعمئة ذراع مالكي أو هو ذراع ونصف بذراع اليد «ولعله يقصد هرما خوفو وابنه خفرع. فهما أكبر أهرامات الجيزة كما كررنا قوله»⁽⁴⁸⁾.

و400 ذراع مالكي = حوالي 300 مترا، وذكرنا بأن 400 ذراع = 200 مترا واعتبرناه رقما مبالغا فيه فأعلى الأهرامات، وأعني بذلك هرم خوفو لم يتجاوز علوه كما ذكرنا 146م⁽⁴⁹⁾.

وقدم صاحب الرحلة معلومات أخرى، وكأنه غير متأكد منها، قال : «ويقال ليس على وجه الأرض أرفع بناء منهما، ويذكر أن عمقهما في الأرض مثل ارتفاعهما». وإذا كان الأغلبية يجمعون على اعتبار الأهرام من أرفع ما عرفه المعمار البشري، فإن الجملة الأخيرة تؤكد بأنه لم تتم زيارة الأهرام من الداخل، كانت الزيارة ستشكل مفتاحا لتأكد بأن عمق الأهرام لا يساوي طولها⁽⁵⁰⁾.

3 — رحلة ابن بطوطة :

الرحالة المغربي ابن بطوطة أشهر من أن يعرف⁽⁵¹⁾. عاش بين سنتي 1304-1369. وإذا كان في السنة الحادية والعشرين من عمره خرج في رحلة حج إلى مكة لكي يفني بأحد أركان الإسلام، وهي بدورها نوع من الرحلات، فإنه سرعان ما ابتلي بالجوالة التي قادته لآفاق قريية وبعيدة. وكانت أرض مصر معبرا لا بد منه. إذن، عندما أمره السلطان أبو عنان أن يملي قصص رحلاته على

= المسعودي، مروج الذهب، رقم 792، ص 77-78.

أحمد فخري، مصر الفرعونية، ص 112-114.

(48) تسند للخليفة المأمون ابن هارون الرشيد عملية فتح مدخل هرم خوفو، أنظر : العبدري، الرحلة المغربية، ص 148.

(49) سبق وأشرنا لإشكالية المقاييس ضمن هامش 23.

(50) لم تدرس الأهرام بشكل علمي إلا خلال هذا القرن.

(51) كان حظ ابن بطوطة من الدراسات أكثر من غيره. اهتم به مشاركة ومغاربة، وعرب وأجانب، وآخر الكتابات حوله هي للأديب المغربي عبد الرحيم المودن، من كلية الآداب والعلوم الإنسانية بالقيظرة.

الناسخ ابن جزى⁽⁵²⁾ لم يفته أن يخص الأهرام بحديثه بل أن يفصل حديثه عن الأهرام عن باقي أحاديثه على خلاف من سبقوه أو لحقوا به من المؤلفين المغاربة الذين أدجموا وصفهم للأهرام ضمن سياقات أخرى، كحديثهم عن مدن مصر، أو حديثهم عن نيلها. وقد عنوان الورقة بـ«ذكر الأهرام»⁽⁵³⁾.

يقر ابن بطوطة ومنذ بداية حديثه عن الأهرام بكونه أمام إحدى العجائب، قال : «وهي من العجائب المذكور على مر الدهور». يبين تضارب الآراء في شأنها وتاريخ بنائها. ولا ريب أن يطغى عليه التحليل الديني، وهو المتشبع بالثقافة الدينية، فيربط تاريخ البناء بعصر ما قبل الطوفان⁽⁵⁴⁾. هذا العصر الذي امتاز بتنوع العلوم والصنائع، وهو عصر «هرمس الأول الذي يسمى أخنوخ وهو إدريس عليه السلام» حسب عبارات النص. وبذلك تحول الهدف من البناء إلى «حفظ العلوم والصنائع»⁽⁵⁵⁾.

قال الرحالة بالحرف : «وخاف (إدريس عليه السلام) ذهاب العلم ودروب الصنائع فبنى الأهرام البرواني»⁽⁵⁶⁾ وصور فيها جميع الصنائع والآلات ورسم العلوم فيها لتبقى مخلدة».

(52) عصر أبو عنان واهتمامه بالثقافة معروف، أنظر على سبيل المثال عصر بني مرين من خلال الإحالة التالية :

M. SHATZMILLER, «Les Mérinides», *Encyclopédie de l'Islam VI*, MAHK - MID, 1991, pp. 556-559.

(53) ألا ينم العنوان على مكانة الخلفية الدينية في الكتابة. فذكر الأهرام يرتبط بفكرة الذكرى. والذكرى للموعظة هي من أسس تعاليم ديننا الحنيف.

(54) عصر ما قبل الطوفان بمثابة عصر ذهبي. وإذا كانت كل المجتمعات تربط بداية تاريخها بالطوفان، فعصر الطوفان الوارد ذكره عند ابن بطوطة، هو الطوفان الزامن لعصر سيدنا نوح عليه السلام، وتفاصيل القصة المذكورة في القرآن الكريم : سورة هود، الآيات 36 إلى 48.

(55) يقدم ابن بطوطة أسماء أخرى لا نعرف أن لها ارتباط ما بالطوفان، كما يحدد أهدافا أخرى من وراء بناء الأهرام، أنظر : ابن بطوطة، الرحلة، ص 38.

(56) إستعمل ابن بطوطة مصطلحا جديدا. تحدث عن الأهرام البرواني. وللإشارة فالكلمة الأخيرة لا تفهم إلا بالرجوع للمسعودي في مروج الذهب، ص 78. وأنداك سيتأكد القارئ بأنه أمام شيئين مختلفين، الأهرام، ثم البرواني. والبرواني يقصد بها ولاشك المسلات (Obelisques).

كما رأينا من خلال تتبع الحكايات السابقة فالغاية الأساسية من بناء الأهرام هي حفظ «جثة الملوك». وبما أن المصري آمن بالحياة الأخرى فقد جعل مقبرته تضم أنشطته الدنيوية. وبذلك فمختلف مظاهر حياته وأفكاره حفظت بشكل آلي وغير مباشر⁽⁵⁷⁾.

لا يختلف وصف ابن بطوطة للشكل الخارجي للهرم عن الوصف الذي قدمه المسعودي وتناقله غيره من المؤلفين — بما فيهم المغاربة — رغم اختلاف العبارات المستعملة. قال ابن بطوطة: «والأهرام بناء من حجر صلد منحوت، متناهي السمو، مستدير، متسع الأسفل، ضيق الأعلى كالشكل المخروط»⁽⁵⁸⁾.

وهو بدوره ردد العبارة التي أوردها العبدري من كون الأهرام لا أبواب لها، ولا تعلم كيفية بنائها وكأنهما لم يتفقا مع ما ذكره الشيخ القبطي في هذا الصدد، ونقله عنه كل من المسعودي والبكري.

ويقدم ابن بطوطة رواية ثانية عن الباني الفعلي للأهرام فيجعله ملكاً⁽⁵⁹⁾ من ملوك مصر قبل الطوفان الذي بنى البناء بسبب الحلم الكابوس (رؤيا هالته). لتشكيل ليس فقط مستودعا للعلوم بل مستودعا لجثة الملوك. وهنا خلط بين أزمان مختلفة ومنها زمن عزيز مصر. ولا يذكر ابن بطوطة اسم الملك وهو شونيد بن سهلون حسب العبدري الذي استمد معلوماته في هذا الشأن من البكري⁽⁶⁰⁾.

(57) يكفي استحضار محتويات الأهرامات للتأكد بأن علوم وصنائع مصر حفظت بصيانة الأهرامات.

(58) ابن بطوطة ووصف الشكل الخارجي للهرم، الرحلة، ص 38.

(59) يؤكد ابن بطوطة نسبة الأهرام للملك من ملوك مصر. والعبارة التي افتتح بها حديثه عن الأهرام عندما قال: «هي من العجائب المذكورة...» فلم يعد الطوفان هو الدافع للبناء، بل الحلم الكابوس. ألا يذكر هذا بقصة سيدنا يوسف مع عزيز مصر؟ فلم يحل الحلم إلا سيدنا يوسف، وهو الذي نصح باتخاذ الإحتياطات اللازمة للسنوات العجاف، كما ورد بالقصة المشهورة، التي سبق الإشارة إليها، هامش 31.

(60) عزيز مصر، يعني رئيس شرطة مدينة صان بقرب بحيرة المنزلة. وقد ورد في العهد القديم باسم فوطيفار. للمزيد من التفاصيل، أنظر: محمد إسماعيل إبراهيم، معجم الألفاظ القرآنية، دار الفكر العربي، القاهرة (د.ط)، ص 341 و597.

أما بالنسبة للملك المصري الذي أورده اسمه العبدري وهو شونيد ابن سهلون فلا يعرف من خلال آثار مصر أو قوائمها الملكية. وقد ذكره العبدري نقلا — كما أوردها — عن =

ويضيف ابن بطوطة معلومات لم ترد عند غيره، ومنها كون الملك السالف الذكر، سأل المنجمين هل يفتح من الأهرام موضع ؟ فأخبروه أنها تفتح من الجانب الشمالي، وعينوا له المكان ومبلغ الإنفاق في الفتح، فوضع قدرا من المال يوافق ما سيصرف. وقد أتم البناء في 60 سنة⁽⁶¹⁾.

ومن المعلوم أن تاريخ بناء الأهرام امتد لأمد طويل — كما أسلفنا قوله — شمل الأسر من الثالثة إلى السابعة عشرة. وناهز عددها 80 هرما — كما ذكرنا — وفاقته المدة ما يناهز إثني عشر قرنا أي من 2700 إلى 1500 ق.م. أما أشهر الأهرامات وأعني بذلك أهرامات الجيزة، فقد بنيت خلال حكم الملوك خوفو وخفرع على أمد 46 سنة⁽⁶²⁾.

إذن، يجب أن نأخذ الأرقام كأرقام مطلقة تفيد في التعبير عن طول المدة أكثر مما تساعد على التحديد الدقيق لتاريخ البناء.

والجملة التي نقلها ابن بطوطة على النحو التالي : «بنينا هذه الأهرام في ستين سنة، فليهدمها من يريد في ستائة سنة، فإن الهدم أيسر من البناء»⁽⁶³⁾. فهذه الجملة هي من قبيل المحسنات البديعية. لأنه إذا كان الهدم أيسر من البناء ففتح الهرم يلزم أن يتم في سنة أو ست سنوات وليس في ستائة سنة !

وقد ذكر ابن بطوطة وحده كيفية فتح المدخل إلى الهرم خلال عصر المامون العباسي الذي وجد مالا هو مقدار ما أنفقه في الفتح. ولا نحتفظ من كلام ابن بطوطة كله إلا بكون المدخل إلى هرم خوفو الذي سيستعمله السواح فيما تلي من عصور، هو الذي فتح في عصر المامون. هذا الملك الذي اشتهر باهتمامه بالعلم

= البكري، أنظر : العبدري، الرحلة المغربية، ص 147. لكننا لم نقف على اسم الملك في مؤلف البكري، المسالك والممالك، ص 509-512 التي تحدث فيها عن الأهرام.

(61) نص ابن بطوطة، الفقرة الأخيرة.

(62) حول مدة بناء أهرامات الجيزة عامة، وهرما خوفو وخفرع خاصة، أنظر : محمد عبد الرحيم مصطفى وعبد العزيز مبارك، تاريخ مصر القديم، مطبعة سعد مصر، القاهرة، 1953، ص 31-57.

أحمد فخري، مصر الفرعونية، ص 109-121.

(63) ابن بطوطة، نفس النص.

والعلماء وبينائه لدار الحكمة (217هـ / 832م) التي لعبت دورا رائدا في حفظ علوم عصره⁽⁶⁴⁾.

4 — الزباني، والترجمة الكبرى⁽⁶⁵⁾ :

يقدم الزباني، إسمين مختلفين لبناء الأهرام وكلاهما استمدهما من الخلفية الدينية. ويتعلق الأمر بسرمان وقبطيم بن مصرم. ويحدد زمن البناء بعصر ما قبل الطوفان. ويجعل الهدف من البناء حفظ الدخائر والعلوم. ولكن هو وحده يعتبر موقع دهشور مجالا لبناء الأهرام — وكما سبق وذكرنا — فالأهرام بنيت على شكل مجموعات على الضفة الغربية للنيل ولكن أشهرها أهرامات الجيزة.

5 — ابن زيدان، في المنزع اللطيف⁽⁶⁶⁾ :

بما أن المؤلف هو في مدح السلطان المولى إسماعيل وجلائل أعماله، وعظيم عمارته فابن زيدان المادح يعتبر في أكثر من فقرة بأن الأهرامات لن تضاهي أعمال السلطان.

استنتاجات عامة :

- تتناب بحثنا ثغرات كثيرة، بما أن المصادر المعتمدة لا تغطي إلا مراحل زمنية محدودة (القرون 12 إلى 14، ثم 19 و20م).
- من المسلمات بل من المفروض أنه كلما رجعنا إلى الماضي كلما قلت معلوماتنا. والظاهر أن الأمر ليس كذلك بالنسبة لموضوع بحثنا، فالمعلومات خلال مطلع هذا القرن، والقرن الماضي كانت ضعيفة بالقياس إلى ما سبق. وكانت المعلومات

(64) أنظر في هذا الشأن : إدواردز، أهرام مصر، ص 133.

(65) معلومات الزباني محدودة وملخصة. ولا تختلف — كما لاحظنا — عن العبدري أو ابن بطوطة إلا في نسبته للأهرام لإسمين هما : سريان ومصرم، وتحويله الثقل من مكان مشهور هو الجيزة إلى مكان أقل شهرة وهو دهشور. وأورد معلوماته في صفحتين مختلفتين. ولكنها لم تتعد بضع سطور (ص 201 و202). وعن حياة هذا المؤلف أنظر الصفحات : 29-45.

(66) ابن زيدان أشار للأهرام في مؤلفه المنزع اللطيف بالصفحات التالية : 71، 355، 386، 416. وإذا كان في الصفحة 71 جعل مباني مولاي إسماعيل موازية في عظمتها للأهرام فإنه تراجع عن ذلك في الصفحات الأخرى، فلم يجعل لمآثر المولى إسماعيل نظير.

قبل ذلك مقارنة للصواب في العديد من القضايا المتصلة بموقع الأهرام، وبطريقة بنائها.

• من المنطقي أن تتجدد المعلومات وتتكاثر مع زيادة الرحلات الحجية ويسرها خلال القرنين الأخيرين. ويظهر أن الرحلات البحرية لم تكن تخول للحاج التوقف عند المواقع المتميزة بآثارها.

• تمييز المعلومات بالتناقض حول مؤسس الأهرامات. فهو ملك حسب البعض : معلوم الاسم حسب العبدري (شونيد بن سهلون)، ومجهول عند ابن بطوطة. وهو نبي أو سليل الأنبياء حسب البعض الآخر. ولكن لم تعد الكتابات المغربية — على اختلاف مشاربها — تحتفظ بأي اسم من أسماء فراعنة مصر.

• وتتفق جل الكتابات المغربية على جعل الطوفان كحد زمني للتمييز بين تاريخ بناء الأهرام والهدف من البناء. وإذا كانت قد تباينت مواقفها حول الغايات الأخرى من تشييد الهرم فهي تجمع على اعتبارها مقابرا للملوك.

• ولم تحتفظ الكتابات المغربية — في جملتها — بطرق البناء، ولا يستثنى من ذلك إلا العبدري الذي تحدث عن المراقى التي يستعان بها في البناء لنقل الحجارة. توسع في شرحها المسعودي الذي روى قصة الشيخ القبطي، ونقلها بعده البكري، ورددها العبدري. ولكن أهملت الكتابات المغربية اللاحقة الفكرة إلى أن عاد واقتنع بها الباحثون المعاصرون.

• يظهر أن الكتابات المغربية استمدت مادتها الخام من مسلكين : المعانية، والكتابات المشرقية. ولكنها اختصار للكتابات المشرقية. ويستثنى من ذلك الإدريسي الذي كانت له طريقته الخاصة في الحديث عن الأهرام، إذ حول نصه إلى مقاييس بخلاف غيره.

• لم تخل الكتابات المغربية من التأثير بالخلفية الدينية باستثناء نص الإدريسي. بالرغم مما قلناه، فالكتاب المغاربة بدورهم لم يفهم الإنشغال بإشكالية الأهرامات كغيرهم من المؤلفين. ولم تفتهم الإشارة إلى تميزها وبعبارة الرحالة الطنجي ابن بطوطة أختم، قال : «وهي من العجائب المذكور على مر الدهور،

وللناس فيها كلام كثير، وخوض في شأنها وأولية بنائها»⁽⁶⁷⁾.

صحيح أن الأهرامات ستظل مثار إعجاب ولغزا محيرا. إذ أنه بالرغم من الحفريات وحل طلاسم الهيروغليفية، أي بالرغم من الإضافات التي أضافها الأثريون لمعلوماتنا حول بناء الأهرام وطرق بنائهم لها فلا زالت «مبان عجيبة في غاية الغرابة»⁽⁶⁸⁾، أليست من أبرز عجائب الدنيا السبع !

(67) ابن بطوطة، الرحلة، الفقرة الأولى، ص 77.

(68) العبدري، الرحلة المغربية، ص 147.

